

تجربة بحثية مصرية

- جامعة القاهرة -

تجربة الباحثة/ نادية سلامة هاشم

العلم دائماً رحلة بحث عن المجهول لنا وهو المعرفة ؛ومثل كثير من رحلاتنا الانسانية قد تكون الرحلة شاقة وقد تكون ممتعة،ورحلة العلم للباحث الجاد دائماً مغامرة لأنه ينطلق من شكوك وعلامات استفهام كثيرة نحو قضية أو ظاهرة ما ،وهو لا يدرك الاجابات في كل الأحوال إلا بعد أن ينتهي من رحلته وقد تأتي هذه الإجابات مُرضية لفضول واسئلة الباحث وقد تأتي صادمة بما تحمله من رؤية مغايرة لتوقعاته وما كان ينوي أن يثبتته من خلال رحلته البحثية.

هنا ؛ أجد أن سرد خبرتي الشخصية في رحلة البحث العلمي واجباً تفرضه الأخلاق العلمية كي يستفيد الزملاء منها.وقد اتبعت في ذلك منهج السرد لكونه أحد طرق البحث الكيفي التي تصلح للمجال التربوي؛حيث تعتمد على الحكي عن التجربة الشخصية بهدف الاستفادة غير المباشرة من واقع الخبرة المتشابهة.

كما أحاول أن أعرض من خلال هذا السرد أهم المشكلات التي تواجه الباحث العربي وتحديدًا المصري في المؤسسة البحثية التي ينتمي إليها أوفي مجتمع بحثه أوفي المنهجية التي يستخدمها ، هذا وغيره مما يضعف العوائد الشخصية والمجتمعية للبحث العلمي و يعيق الباحث التربوي عن استكمال رحلته البحثية وهو مُفعم بسعادة التعلم وبقيمة النجاح .

فقد بدأت رحلتي مع البحث العلمي منذ أن التحقت بالدبلومة العامة للتربية بمعهد الدراسات التربوية ، جامعة القاهرة عام 2002- 2003 ثم الدبلومة الخاصة عام 2008- 2009 وتحديدًا في الدبلومة الخاصة وجدت ان كثير من مفاهيمنا العلمية

وطرق البحث قد تغيرت وأن كياناً جديداً وجد على خريطة العلم غير حدودها ومعالها ؛ هذا الكيان هو الفضاء المعلوماتي الجديد الذي أوجدته التكنولوجيا الحديثة .. فضاء صنعه شبكات الانترنت والتواصل الاجتماعي المختلفة .

فلم تعد المعلومات سجين السطور داخل الأوراق والأدراج بل أصبحت محمولة مع الرياح تجوب الأرض من أقصاها إلى أدناها بسرعة خاطفة. كما أن تلك المعلومات أصبحت أيضاً معرفة تنبئ عن قوة من يمتلكها ويتحكم في مسار سيرها ونتاجها والاستفادة منها بكافة الاشكال والطرق..

هكذا لفتت انتباهي هذه التغيرات السريعة التي لحقت بساحة العلم كما لحقت بالبشرية كلها فكان البحث عن مكاننا وموقعنا كشعوب عربية من خريطة العالم الجديدة التي شكلتها التكنولوجيا والعلم والمعرفة وهل كان لهذه التغيرات مردودها على نظرة أجيال جديدة منا للعلم والمعرفة وهي التي تعيش وتتفاعل معها يومياً بشكل مباشر أو غير مباشر.

ومع التطبيق على حالتنا في مصر فقد قادني ذلك الى موضوعي في رسالة الماجستير المقدمة لقسم أصول التربية والذي كان بعنوان " رؤية المجتمع المصري للتعليم :دراسة سوسيولوجية عبر الأجيال" ثم موضوع الدكتوراه أيضاً والذي ركز بشكل اكبر على الجيل الناشئ مما يطلق عليهم اليوم الأجيال الرقمية " وكانت بعنوان " تعليم الجيل الرقمي في المناطق المحرومة:دراسة سوسيولوجية لملاح الاستبعاد الاجتماعي " في محاولة لتوضيح تلك الفجوة الرقمية التي يعاني منها الاطفال في البيئات الفقيرة في الوقت الذي اصبح فوجهم الجيلي في العالم المتقدم يأخذ التصنيف " الجيل الرقمي Z" وهو الجيل المولود مع التكنولوجيا الشديدة التعقيد

والتغير والذي ينمو معها بشكل يومي متفاعلاً مع تعقيداتها وتغيراتها المتسارعة دون أن يشكل له ذلك عناء كالأجيال التي تسبقه.

في خضم هذا البحث المتواصل عن المستقبل مع تلك الأجيال كانت هناك دائماً ورود وأشواك أمر عليها كل يوم أو تنثر في طريق رحلتي العلمية حسبما تقتضي الظروف.. منها ما يرتبط بالبشر بفكرهم وعقائدهم المختلفة ومنها ما يرتبط بالمكان بتعقيداته المادية والفنية..

في حرم الجامعة وجدت الكثير من الورد والاشواك .. فعلى الجانب البشري.. بعض الأساتذة يرفضون التغيير .. يرفضون الاعتراف بأن العلم مغايرة فهم قانعون بأنه ليس في الإمكان ابداع مما كان وأن رسالة السلف للخلف لا بد أن تظل كما هي دون النظر لكل تلك التغيرات التي تلاحق العالم كل يوم .. فمناهج بحث واحدة تتبع من قديم العصور واعتماد مفرط على الأرقام بالرغم من أن مجالنا التربوي هو مجال البحث في عالم الانسان بتعقيداته الوجدانية والعقلية والنفسية والاجتماعية المختلفة.

لكن على الجانب الآخر وجدت بعض النماذج لأساتذة وهم قلة تحرروا من قيود الماضي وانطلقوا الى المستقبل ولم يمنعهم من ذلك تقدم العمر فقد شكل حبهم المتواصل للتعلم بالرغم مما بلغوا من علم لبنة أساسية في عبورهم إلى عالم التكنولوجيا واندماجهم مع الفضاء المعلوماتي ومع عصر ما بعد الحداثة .. رفضوا التقولب في أطر نظرية جامده ومناهج وطرق بحثية واحدة وبدأوا في تحريك المياه الراكدة من خلال الباحثين الجدد فكان البحث المتواصل عن تجديد المفاهيم التربوية أو الخروج عن المألوف في مجال البحث التربوي - كما وصفته إحدى أبرز هذه النماذج وهي الأستاذة الدكتورة نادية جمال الدين - .. رفضوا أيضاً الاحتكام القاطع

والمفرط إلى الأرقام دون التعمق في أغوار هذا الكائن البشري الذي قام لأجله العلم
بوجه عام وعلم التربية بوجه خاص .

رفضوا أيضاً التشتت والانفصال بين العلوم وعلنوا أن التربية محطة وقوف
اضطراري لكثير من العلوم .. وبحيرة تصب فيها كافة الأنهار وبالتالي فتحو لنا
نحن الباحثين من علوم مختلفة الأبواب للتواصل والتخصص البيئي المثمر فكان منا
من ربط التربية بالقانون أو بالاجتماع أو بالفن أو بالاقتصاد أو بالتكنولوجيا وحتى
بالطب والصناعة والهندسة.

كما وضعوا أيدينا على البحث بالطرق الكيفية مما شكل فرصة جيدة لي ولباحثين
كثيرين سواء مصريين أو من إخواننا العرب للإنخراط في مشكلات مجتمعاتنا بعمق
وفهم الظواهر المرتبطة بالتعليم من منظور الناس أنفسهم المعاشيين لهذه المشكلات
لا من منظور الباحث أو المنظر أو المشرع ، وهو ما يدعم المبدأ والاعتقاد القائم
على أن علم التربية علم إنساني يهتم بالإنسان ككيان متكامل غير متجزأ .

وبالتطبيق على تجربتي البحثية فقد أفادتني قيادة استاذتي الدكتورة نادية لي بإختيار
المنهج الإثنوجرافي كطريقة للبحث تعتمد على المعاشية والمشاركة في الاندماج مع
الناس في بلادي وفهم مشكلاتهم واحتياجاتهم التعليمية ورؤاهم الخاصة للعلم
والمعرفة ؛ فكان العيش مع الفقراء وأطفالهم مثلما يحزنني في كثير من الأحيان
يعطيني الأمل في بعض الأحيان بأن الرغبة في العلم أحياناً لا تعرف المستحيل ..
أو كما قال لي أحد الشباب من الفقراء " انا بشتغل في الأجازات وبحوش كل ملهم
عشان اتعلم ".

واجهت في رحلتي العلمية على الجانب المؤسسي .. الكثير من التعقيدات الإدارية
والعجز في الموارد والامكانيات التي تيسر سبل البحث ؛ فالوصول إلى المعلومات

في الجامعة أصبح يشكل عبء كبيراً على الباحث نت ذلك طرق البحث في المكتبات القديمة التي ما تزال تعتمد على الأوراق والموظفين أكثر من التكنولوجيا والمتخصصين؛ حتى إن وجدت التكنولوجيا فلا يوجد من يديرها بكفاءة كما لا يوجد ما يلحق بها من خدمات جيدة من طباعة و تصوير وغيره ، كثير من الأحيان أدخل المكتبة لأخرج يائسة من رتابة الروتين في تصوير ورقة من كتاب أو تحميل بحث من موقع الكتروني متاح الدخول فيها. وكثيراً ما أوجه اللوم لنفسي قائلة " **عجزت أن تحركي أصابعك على شبكة الإنترنت بنقرة ماوس على جهاز الكمبيوتر لتنتقل لك معارف العالم وانت في منزلك؟! ..** " لكني أعاود القول وماذا افعل وانا لا أجد الانتاج العلمي العربي موجوداً على هذه الشبكة وكأن أبحاثنا ورسائلنا كتب عليها " **حقوق النشر محفوظة للجمود والروتين !** " .

أما على الجانب البحثي فالعمل في الميدان في مجتمعنا عمل محفوف بمخاطر ضعف الثقة في البحث العلمي وفي تطبيق نتائجه ؛ فكثير من الناس لا تعي أهمية ذلك بل قد يلاقي هذا الباحث المغامر في بعض الأحيان التهمك والسخرية ليس من جمهور بحثه فقط ولكن من زملائه الذين ارتضوا الإحتكام إلى الأوراق وجدران المكتبة دون النظر إلى أصحاب القضية المبحوثة وهم البشر أنفسهم .

كما أن الخوف من الإفصاح بمعلومات سمة أساسية ؛ فالتاريخ الطويل الذي لاقاه المجتمع من القمع والكبت على مستويات سياسية وفكرية وثقافية مختلفة جعل الناس تتردد كثيراً قبل أن تتن أو تعبر عن أوجاعها وهموها.

مشكلة أخرى .. تورقني دائماً النظرة إلى العمل في فريق في المؤسسات البحثية المختلفة سواء الجامعة أو مراكز البحوث ، فالشك والتوجس من السرقات العلمية

جعل الكثير من الباحثين يرفض ذلك النوع من العمل ويشك في ان ينسب النجاح للجميع وأن يختزل النجاح في النهاية لصالح شخص واحد فقط.

كما أن التدريب على ذلك النوع من العمل البحثي شبه منعدم وليست هناك قيادات تدعمه وإن وجدت فهي تواجه الكثير من العقبات والعراقيل التي يضعها كارهي التميز والنجاح.

تشكل أيضاً العلاقات الإنسانية في مجال البحث داخل حرم الجامعة مع الاساتذة والزملاء عاملاً هاماً في السير قدماً في رحلة الباحث العلمية فقد تدعمه هذه العلاقات وقد تقف في وجهه وتشعره بالفشل والإخفاق ..

وبالتطبيق على رحلتي البحثية فقد وجدت في جامعة القاهرة وتحديدًا في معهدي روحاً وشكلاً مختلفاً للأستاذ الجامعي لم أجده في بعض الجامعات الأخرى خاصة وإني درست من قبل في جامعة إقليمية ؛ وهو ما يجعلني اصف الأساتذة دائماً في هذا جامعة القاهرة وتحديدًا في معهدنا التربوي بأنه يطغى عليهم البعد الإنساني في التعامل مع الطلاب ، إلى الحد الذي يشعر معه الطالب في كثير من الأحيان إنه ينتمي إلى أسرة كبيرة فيها الأب والأم والأخوة وهكذا.. لم أشعر يوماً بغربة أو خوف داخل ذلك المكان فأنطلق للتعبير بحرية شديدة دون خوف من سلطة أكاديمية أو كبت علمي فالجو العام يتسع للاختلاف دائماً .

يلاقي الباحث أيضاً كثير من العقبات الفنية عند إخراج رسالته إلى المجتمع العلمي أي قبل المناقشة العلنية ؛ فعدم وجود مراكز خدمية متخصصة داخل المعهد أفقدني كثير من الوقت والجهد في كتابة الرسالة بنفسني ومراجعتها لغويا من قبل متخصص لغة و تنسيقها من قبل متخصص فني ثم طباعتها وكل ذلك حتى أضمن الدقة ثم إجراءات ما بعد المناقشة أيضاً والتي يتحمل فيها الباحث أعباء البحث عن أماكن

للطباعة والتغليف ثم التوزيع على المكتبات الجامعية كل هذا مما يشكل مجهوداً مضاعفاً على الباحث.

وتأتي المشكلة الكبرى.. التي تهدد كل باحث في نهاية رحلته بالشعور بالإحباط ..

إنها غياب الوعي والحماس من قبل متخذي وصانعي القرار والجهات والمؤسسات التي يعتقد الباحث أن نتائج بحثه ضرورية لتطوير أدائها وحل مشكلاتها .. ليجد الباحث بحثه رهين المكتبة وقد لا ترى نتائج بحثه مهما بلغت قيمتها النور.. ولا يكتب لتوصياته ومقترحاته التطبيق للمساهمة في التغيير. بل قد لاتصل رسالته مطلقاً إلى الرأي العام لتسهم في تشكيله أو تعديل مسار خطاه.

هنا يصاب كثير من الباحثين الجاديين بشعور بعدم جدوى ما يقوله وما توصل إليه بعد عناء طويل قد يدوم لسنوات ؛ هذا ما شعرت به بعد أن فقدت القدرة حتى الآن على نشر رسالتي بعدما مررت على كثير من دور النشر لأجد دائماً الحجة القائمة بأن الرسائل العلمية لا يوجد عليها إقبال من قبل القراء هذا بالرغم من أنني ذكرت سابقاً أننا كباحثين نلهم في المكتبات حتى نجد ورقة أو كتاب أو رسالة ذات مذاق عربي مطبوعة أو حتى متاحة على شبكة الإنترنت.

لكن وبالرغم من كل هذه التحديات تبقى لدى البعض الرغبة في العلم لا تعرف المستحيل كما تعلمت ذلك من هؤلاء الراغبين في العلم في أشد المناطق فقراً في مصر . كما تبقى القدوة والقيادة عاملاً هاماً ومؤثراً في مواجهة التحديات والثبات على المبدأ مهما كانت العقبات كما تعلمت من أستاذتي.. وكما أرغب في أن أعلم ذلك لأجيال من بعدي إن إتاحت لي الفرص.

الباحثة/ نادية سلامه هاشم

